

# قيمة الرواية التاريخية (موجز البحث)

**بقلم: يوسف سامي اليوسف**

يتألف هذا البحث من عشرة عناوين فرعية، وهي:  
**أولاً مدخل:**

وفيه تعريف بالقيمة من حيث هي مركز التجربة البشرية ومدار اهتمام الناس، إذ هم لا يُعنون بالشيء إلا إذا كانت له قيمة، بل إن شدة اهتمامهم به تتناسب طردياً مع سمو قيمته بالضبط.

**ثانياً – أصول الرواية التاريخية:**

لعل الألياذة والأوديسة أن تكونا الإنجازين الأكثر قدماً بين جميع الإنجازات الأدبية ذات الصلة بالرواية التاريخية. كما قد يجوز الزعم بأن السير الشعبية، مثل تغريبة بني هلال وسيف بن ذي يزن، هي تمهيدات للرواية التاريخية. وهناك ملحمة "القدس المحررة" للشاعر الإيطالي تاسو، وكذلك "القدس المفتوحة" للشاعر الإسباني لوبسباد بيجا، ثم "دون كيشوت" لسرفانتس.

**ثالثاً – اشكالات الرواية التاريخية:**

لعل أهم اشكال بين اشكالات الرواية التاريخية أن يلخص هذا السؤال: هل يكفي أن تدور أحداث الرواية في الزمن القديم كي تعد رواية تاريخية؟ ولكن البحث الراهن يتبنى وجهة نظر مفادها أن الرواية التاريخية لا بد له من أن تكون وثيقة الصلة بمسار التاريخ نفسه، أي بسياسة عصرها وحروبها وجملة توتراته. ومثال ذلك "شجرة الدر" لزيدان، و"آيفنهو" لسكت، و"الحرب والسلام" لتولستوي.

**رابعاً – وظيفة الرواية التاريخية:**

ما من مسوغ يسوّغ الرواية التاريخية إلا قدرتها على استحضار روح العصر الذي تدور فيه أحداثها، وهو الشيء الذي قد لا يملك المؤرخ الموضوعي أن يلم به على الأصالة. وهذا يعني أن عليها أن تحيل التاريخ إلى فن وإلا فإنها لن تحقق وظيفتها أو الغاية منها.

**خامساً – اندماج العنصرين:**

إن دمج التاريخ بالفن يتطلب أن تجيء شخصيات الرواية مفعمة بالحيوية، وكذلك ممثلة لعصرها وحاملة لخصوصيته على نحو خصيب، وإلا فلن تكون لها أية قيمة كبرى بتاتاً. وهذا يعني أن تلك الشخصيات ينبغي أن تجيء محلية وكونية في آن معاً. ثم ينبغي أن تكون ممثلة لزمانها وقادرة على أن تظل حية في زمن قراءة الرواية، أي في عصر مختلف عن العصر الذي عاشت فيه.

ولا يملك النص المكتوب أن يكون رواية حين لا يحتوي إلا على مسرد لأحداث تاريخية تخص زمناً معيناً. ومن الأمثلة على ذلك نص عنوانه "نابليون في مصر وسوريا" للكاتب الفرنسي بنوا- مشن. وهو بمثابة تقرير مفصل لحملة نابليون

المعروفة هذه، وليس فيه من الرواية إلا أسماها وحسب. ولهذا السبب، فإنه لا يتمتع بأية قيمة فنية بتاتاً.

#### سادساً – الحروب الصليبية كما رآها العرب:

هذا نص لأمين المعلوف الذي يكتب باللغة الفرنسية. وهو موجز لتاريخ الحروب الصليبية، ولا صلة له بفن الرواية من قريب أو من بعيد. ولهذا، فإنه بغير قيمة أدبية مهما تك طفيفة. إنه تاريخ وليس أدبا قط. وثمة نص آخر للكاتب نفسه عنوانه "سمرقند"، وهو مخلوطة من أحداث تاريخية وغير تاريخية، تجري في زمنين متباينين جداً، دون أن يكون هنالك أي رابط يربطهما معاً بشكل مقنع. ويتأسس هذا النص على مبدأ السرد الذي يراكم الأحداث دون أن ينجز أية برهة نوعية. ولهذا، فإن مما هو مشكوك فيه أن تكون له قيمة كبيرة.

#### سابعاً – أيفنهو:

إن هذا النص هو رواية تاريخية نموذجية، مع أنها لا تخلو من بعض المثالب أو الأخذ الجدية. إنه انجاز أدبي معني بانتصار العدل على الظلم والنبالة على النذالة. والأهم من ذلك أن الشخصيات قد جاءت مفعمة بالحيوية والخصوبة، كما، أن العصر الذي تدور فيه الأحداث قد ظهر زاهياً ومترعاً بالعدوبة والقدرة على الاجتذاب والتأثير. وأهم ما في أمرها أنها تمثلت سياسة عصرها وتوتراته، كما استطاعت أن تحيل السياسي إلى فني بالفعل.

#### ثامناً- شجرة الدر:

مثل " أيفنهو"، جاءت رواية " شجرة الدر " لجرجي زيدان بوصفها رواية مغامرات. ولقد أجاد الكاتب في تصويره لشخصية شوكار العاشقة، كما أجاد في جعل الشخصيات تجسد سياسة عصرها دون أن تخسر انسانيتهما أو جانبيها الفني. وهذا يعني أنها تتمتع بشيء من القيمة والأهمية، على الرغم من وجود بعض المثالب التي لا يستهان بها.

#### تاسعاً- الحرب والسلام:

أما رواية " الحرب والسلام" لتولستوي فهي رواية تاريخية نموذجية، وقيمتها لا تبذ بتاتاً. ومصدر أهميتها أنها استطاعت أن تدمج الأنبي بالكوني، فشخصياتها التي تعيش في زمن نابليون هي كائنات بشرية حقيقية تستطيع أن تمتد بمحتوياتها الانسانية باتجاه أزمنة كثيرة وأماكن كثيرة. ولقد استطاعت تلك الرواية أن تدمج التاريخ أو الأحداث الكبرى بتحليل الشخصيات والتنقيب في أغوارها عن محتويات النفس البشرية. وهذه مزية لم تتوفر إلا لعدد طفيف جداً من الروايات التاريخية.

#### عاشراً- ختام:

في هذا الشطر الأخير من البحث، ثمة رأي مفادها أنه ما من مسوِّغ يسوِّغ الرواية التاريخية إلا إذا استطاعت الشخصيات أن تتمثل وتجسد روح زمنها تمام التمثل والتجسيد، وأن تحافظ في الوقت نفسه على هويتها الانسانية الشاملة، أي أن تلحم الأنبي والديمومي في ملغمة واحدة.

ثم يقترح البحث بأن على الرواية التاريخية أن تصور هذا الجحيم الجاحم الذي يسمى التاريخ، وأن تتساءل عن السبب الذي جعل الانسان يتحمل تاريخه الجهنمي، وأن

يستمر في الوجود بدلاً من أن ينقرض ليخرج من بؤسه. بإيجاز، إن على الرواية التاريخية أن تطرح أسئلة فلسفية لا تدخل في اختصاص المؤرخ الموضوعي، بل فقط في اختصاص الانسان الحساس، أعني الكاتب الأدبي الذي يعتقد بأن الفن أسمى من العلم بما لا يقاس.